المحاضرة الأولى

بين الشّعر والموسيقى علاقة قرابة منذ القديم. لا تمّحي. فقد ارتبط الشعر عند العرب، في بحر العصور الغابرة، بالغناء، حتّى غدا «الغناء ميزان الشعر»؛ فكان كلاهما مثل توأمين تَصاحبا في الوجود منذ أن بدأ الغناء نوعا من الأشعار القصيرة، وارتقى إلى شكل القصيدة. ولا يرقى إلينا شكٌّ في أنّ الشعراء، منذ ما قبل الإسلام، كانوا يُغنّون أشعارهم، ويعبّرون عن نظمه وإلقائه بالإنشاد، ولعلّ أشهرهم المهلهل، وعلقمة الفحل والأعشى.

وكان من الشعراء من يُنْشد الشعر قاعدا، ومنهم من ينشده واقفا، كما أنّ من طقوس إنشاد الشعر والتغنّي به والعناية به. عدا عن أنّ أحدهم قد يرفع من قدر الشعر، أو يحطُّ منه تبعا لحسن الإنشاد أو سوئه. ولم يكن ذلك يحدثُ خارج مقامات القَوْل التي يَلْهج بها الشاعر، فكان إن نسب ذلّ وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخلّ وأوجع، وإنْ فخر خبّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع.

وقد وجدنا كثيرا منهم يذكر في شعره الغناء والقيان وآلات الموسيقى المتنوّعة من صنجٍ ومزهرٍ ودفٍّ وعودٍ، وسواها؛ وهو ما يدلّ على ارتباط شعرهم بوظيفة الغناء، وظلّ ذلك مستمرّا حتى عهود متأخرة. ومثلما كانت لهذه الأغاني قوّة سحرية تعين الإنسان في عمله وتنجز له هذا العمل، بقدر ما شفّت عمّا بداخل الشاعر، فكان غناؤه نُواحا يخرج جوهرية النفس الشرقية المقهورة تاريخيّا وطبيعيّا، جنسيّا ومادّيا، إخراجا إيقاعيّا ندعوه الشعر.

* وجوه الغناء عند العرب:

تنقل لنا كتب الأدب والتاريخ أنّ غناء العرب كان يجري في القديم على ثلاثة وجوه: النصب، والسناد، والهزج. وقد رُوي عن ثعلب أن العرب كانت تعلِّم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول، يُوضع على بعض أوزان الشعر، كأنّه على وزن (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، حتى أصبح هذا الشكل مستقلّا عن غيره، وهم يعرفونه من اللحن والنغم ويُميّزونه عن غيره من التغني به؛ فإذا أرادوا تمييز بيتين عن بعضهما تغنّوْا بكليهما، فإن توافقا فهما من وزن واحد، وإلا فهما مختلفان من دون أن يعرفوا الأوزان ويسمّونها، فالغناء عندهم مضمار معرفة الشعر، كما قال حسان بن ثابت:

تغنّ بالشعر إمّا كنت قائلهُ إنّ الغناء لهذا الشعر مضمارُ

وهكذا، بسبب من أصوله الغنائيّة، انغلق الشعر العربي على قيم وموازنات صوتيّة وموسيقيّة ساعدت على تلحينه والترنُّم به وإخراجه منظَّما ومقطَّعا تقطيعا صوتيّا دقيقا، بما في ذلك التقفية والسجع والترصيع والتكرار، وهو ما بعث الموسيقى في جذر الكلمة الشعرية، وفي علاقتها الجرسية بغيرها من الألفاظ التي كانت تقتحم الأسماع، وتملأ فم منشديها، فتُميل إليها القلوب. ويعدّ الحداء، في نظر كثيرين، أقدم أشكال الغناء في عصر ما قبل الإسلام، أو هو «أوّل السماع والترجيع في العرب»، بتعبير المسعودي. وهو غناءٌ شعبيٌّ شاع بين العرب يؤدّونه للتخفيف عن أنفسهم، ويحدون به إبلهم في مسيرهم ورحيلهم، كما استخدموه في السعي من الآبار وفي الحماسة والحروب.

لقد كان العرب في الجاهليّة يُرجِّعون الشعر بأن يقرؤونه على الألحان والتطريب والإيقاع ليؤثِّر في جمهور السامعين، ويقع منهم موقعا حسنا. ولم يكن لهم سوى ذلك، مستلهمين بسليقتهم وتوقُّد ذهنهم روح الطبيعة وأسرارها. وفي ذلك ما يُجلّي، كما قال ابن سينا، «حبّ الناس للتأليف المتفق والألحان طبعا. ثم قد وجدت الأوزان مناسبة للألحان، فمالت إليها الأنفس وأوجدتها. فمن هاتين العلّتين تَولَّدت الشعرية، وجعلت تنمو يسيرا تابعة للطباع. وأكثر تولِّدها على المطبوعين الذين يرتجلون الشعر طبعا، وانبعثت الشعرية منهم بحسب غريزة كل واحد منهم وقريحته في خاصته، وبحسب خلقه وعادته». فلمّا جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكان «أروى الناس شعرا»، بدا له أنّ الحاجة مسّت إلى استخراج أوزان الشعر العربي وسكبها في قواعد موسيقية.

كانت أوزان الشعر المغنّى في بداية نشأتها، شأن الحداء، أوزانا قصيرة وبسيطة تقوم على تكرار تفعيلةٍ واحدة أو أجزاء منها، قبل أن تضطربَ بين القدر الأوسط والطويل داخل ما يتفرّع عنها ويتحدّر منها جزءا وتشطيرا وتأليفا. وما دامت هذه الأوزان التي نتجت عن تطوّر الغناء وقوالبه الموسيقية قديمة، فـلا مراء في أنّهما قد اتّصل اقترانهما زمانا لا نعلم مداه، ثمّ انتهيا إلى الانفصال، فسار كلُّ فـنٍّ سيرته.